ضيقة وراء مسجد ابن طولون، فقيرة، مزدحمة.. حقًا.. سبحان منبت الورود من الطين، زهرة بحق، لا ترد على مخيلة إلا محفوفة بالنرجس والياسمين والسكر المعقود، تأخذه رعدة إذ يستدعى انفراجة شفتيها.. فقط تطلعهما وتلهفهما. وذلك الضوء المستور الذى يسرى عبرها، يتزايد مع تصاعد النشوة. كان اسمها ثريا بحق، غالبت الجوع والمرض والبنية غير المساعدة ونفرت متوردة، سخية، مودعة كل لحظة بهجة مغايرة.

لا يدهشه ذلك، عرف معوزات، مدقعات يتجاوز جمالهن كل توقع، خاصة زمن الفتوة والارتقاء، لكن.. لا يتحقق الاستمرار، سرعان ما يأفل. تمامًا كريحان المقابر، سخى الرائحة لكنه قصير العمر.

لكى يصل إلى ثريا قطع أربعين ساعة من الجهد المتصل الموزع على ثلاثة أسابيع، أما التمكن والتليين فاقتضى سنة كاملة، ثم بدأ غيره يستنشقها، مرة برقة، ومرات بغلظة.

الحق.. إن هواه مال إليها، رغبها، حال نادر لم يعرفه إلا مرات معدودات، أول من تسلمها ثرى عربى ذو مكانة، لم يبخل، غمره بالهدايا، عرض عليه وظيفة مغرية فى بلده، مرتبها مرتفع لكنه اعتذر بلطف. صحبها معه إلى الإسكندرية وسر بها، لقى فى جمال حضورها، ورقة مطلعها مع خشونة صوتها ما بحث عنه طويلاً.

إنه اجتماع الضدين، أما يداها فرآهما كما يرغب ويتمنى، أصابعهما نحيلة، مسحوبة، راحتاها مثل القطايف، ممتلئتان ناعمتان، قبله بين عينيه قائلاً: أنت تعرف ما أبغى وكأنك شفت أفكارى، زين والله، زين والله.